



خطبة صلاة الجمعة 21 / 9 / 2018 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(كيف يلين قلبي؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشد به، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: 83].

قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

هذه هي الخطبة العاشرة في سلسلة (هموم الشباب)

عنوان الخطبة: كيف يلين قلبي؟

أيها الإخوة:

واحد من هموم الشباب المؤمن خاصة والإنسان المسلم عامة خوفه من قسوة القلب؛ لأنه يعلم أنه لم يُضرب عبداً بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، وقد حُلِّقَت النَّارُ لإذابة القلوب القاسية. يرى نفسه تتجرأ على المعاصي عندما يقسو قلبه، بينما يراها تطير إلى الطاعات عندما يلين القلب.

قرأ في القرآن الكريم: ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: 22]، وقوله

تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7].

فخاف أن يقسو قلبه ويختم عليه، وهو يعلم أن الله تعالى وصف قلوب الكفار في القرآن الكريم بعشرة أوصاف: بالختم، والطبع، والضيق، والمرض، والران، والموت، والقساوة، والانصراف، والحمية، والإنكار.

سمع آية سورة الحديد تعاتبه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا

كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16]، وذكر ما

رواه الإمام مسلم عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال: ما كان بينَ إسلامنا وبينَ أن

عاتبنا الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ؟﴾ [الحديد: 16] إلا أربع سنين.

فذكر أن عمره في الإسلام زاد على الثمانية عشرة أو العشرين أو الثلاثين فيقول بينه وبين نفسه متى

يخشع هذا القلب ومتى يلين؟

قرأ في ترجمة سيدنا عبد الله بن عباس أنه كان حبر الأمة وبحرها، وكان كثير البكاء كلما صلى

وكلما قرأ القرآن، فإذا بلغ في قراءته بعض آيات الزجر والوعيد، وذكر الموت، والبعث علا نشيجه ونحيبه.

وعندما مرض النبي ﷺ واشتد مرضه، قال: «**مروا أبا بكرٍ فليصل بالناس**»، فقالت عائشة: يا رسول

الله، إن أبا بكرٍ رجلٌ أسيف -وفي رواية: رجلٌ رقيق القلب-، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي

بالناس -وفي رواية: إذا قرأ القرآن بكى-. [رواه البخاري].

قرأ في ترجمة سيدنا صلاح الدين الأيوبي أنه: (كان يحبُّ سماع القرآن العظيم ويواظب على سماع

الحديث، وكان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع القرآن والحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين) (سمط النجوم العوالي).

وقرأ في ترجمة سُحنون الفقيه المالكي: (كان سحنون ثقة حافظاً للعلم... رقيق القلب غزير الدمعة

ظاهر الخشوع متواضعاً) (ترتيب المدارك).

فهو يقول: كيف لي بقلب سليم كقلوب هؤلاء ألقى الله تعالى به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من

أتى الله بقلب سليم، ويسأل كيف يلين قلبي؟

وللإجابة على هذا السؤال أقول: يلين قلبك بأمرين:
بترك أسباب قسوته، وبالإكثار من الطاعات وعلى رأسها ذكر الله.

أولاً: ترك أسباب قسوة القلب:

وأسباب قسوته ثلاثة: الذنوب والمعاصي من دون توبة. ومجالسة قساة القلوب. والإكثار من المباحات.

- أما السبب الأول لقسوة القلب وبتركه يلين فهو الذنوب والمعاصي من دون توبة.

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة:13].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَرَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَغْلُو قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّأُّ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَأَلَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14]» [الترمذي]. وقال الصالحون: من أكل الحرام قسا قلبه.

من هنا -أيها الإخوة- قال النبي ﷺ: «من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه» [أبو داود].
ذلك لأن المعاصي والذنوب دون توبة تقسي القلب.

ومن هنا جاء في الحديث: «النَّظَرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومَةٍ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ» [أخرجه الحاكم].

ذلك لأن الإقلاع عن المعصية يُذهب قسوة القلب ويلينه ويجلب حلاوة العبادة له.

فمن أراد منكم أيها الشباب أن يلين قلبه ويخشع فؤاده ويسلم جنانه فليترك الذنوب والمعاصي وليتب إلى الله تعالى منها.

- وأما السبب الثاني لقسوة القلب وبتركه يلين فهو مجالسة قساة القلوب.

لأن صاحب يعدي، وعدوى الروح إلى الروح أسرع وأمضى من عدوى الجسد إلى الجسد، والطبع يسرق من الطبع.

فمجالسة قساة القلوب وصحبته تقسي القلب، ومجالسة أصحاب القلوب الرقيقة وصحبته ترقق القلب؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه الكريم وهو أظهر الخلق قلباً، وأسلم العباد صدراً، وأرق العباد فؤاداً:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف:28].

من هنا عقد الإمام النووي في كتابه الشهير "رياض الصالحين" باباً عَنْوَنَهُ فقال: (باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتههم ومحبتهم)، ذَكَرَ فيه أحاديثاً عن رسول الله ﷺ تدعوك لزيارة الصالحين ومجالستهم، والابتعاد عن زيارة قُساة القلوب ومجالستهم.

وذكر أول حديث فيه عن أنس ﷺ قال: قال أبو بكرٍ لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: (انطلق بنا إلى أمِّ أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها، بَكَت، فقالا لها: ما يبكيكِ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ؟! قَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا) [مسلم].

فمجالسة رفيق القلب ترقق قلبك، ومجالسة قساة القلوب تقسي القلوب.

- وأما السبب الثالث لقسوة القلب وبتركه يلين فهو الإكثار من المباحات.

فكثرة الطعام وكثرة الكلام وكثرة المنام وكثرة الضحك كُلُّهَا تُشْغِلُ القلب وتُقَسِّيه، والاعتدال فيها والتوسط هو المطلوب.

أما كثرة الطعام: فقد قال تعالى: ﴿ذَرُهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْسَعُوا وَيُلْهَمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:3].

وأما كثرة الكلام: فقد قال رسول الله ﷺ: «لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي» [الترمذي].

وأما في كثرة الضحك: فقد قال رسول الله ﷺ -ويروى موقوفاً على الحسن-: «لَا تُكْثِرُوا

الضحك، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحْكِ تُمَيِّتُ الْقَلْبَ» [ابن ماجه].

وفي كثرة النوم: قالت أم سليمان بن داود لسليمان ﷺ -وهي أم نبي وزوجة نبي-: «يا بني، لا تكثر النوم بالليل، فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَتْرِكُ الرَّجُلَ فَقِيراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [ابن ماجه].

وهكذا سائر المباحات، التكثر منها يلهي ويشغل القلب فيقسو.

فيا أيها الإخوة الشباب من أراد منكم أن يلين قلبه فليترك أسباب قسوته وليكثر من الطاعات وعلى رأسها ذكر الله.

ثانياً: الإكثار من الطاعات وعلى رأسها ذكر الله

فإذا كان الجسد محتاجاً إلى الطعام والشراب وإذا كان العقل محتاجاً إلى الأفكار والآراء فإن القلب محتاج إلى الطاعات والأذكار.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

أخرج الإمام أحمد بإسناد منقطع عن أبي هريرة: أن رجلاً شكاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين».

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي قال: قال: أذبه بالذكر.

فما أذيت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل.

وشكى رجل قسوة قلبه للسيدة عائشة رضي الله عنها فأمرته بعيادة المريض وتشجيع الجنائز وتوقع الموت.

وشكى ثالث قسوة قلبه لمالك بن دينار فقال له: أدمن الصيام.

جاء في الرسالة القشيرية عن أبي بكر الكتاني قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقلت: ادع الله أن لا يميت قلبي، فقال: قل كل يوم أربعين مرة "يا حي، يا قيوم، لا إله إلا أنت" فإن الله يحيي قلبك.

فكثرة الطاعات وعلى رأسها ذكر الله تعالى سبب ليلين القلب ويخشع.

وبعد أيها الشباب:

هذا واحد من همومكم كيف يلين قلبي؟ وهذا جوابي لكم عليه. بترك أسباب قسوته وبالإكثار من الطاعات وعلى رأسها ذكر الله، اللهم اجعل في قلوبنا نورا وفي أسماعنا نورا وفي أبصارنا نورا، اللهم اهد قلوبنا واسلل سخيمة صدورنا، اللهم ونق قلوبنا من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس.

والحمد لله رب العالمين